الفصل الثالث

حضارة البحر الأبيض المتوسط في شمالي أفريقيا وغربيها

رأينا في الفصلين السابقين كيف امتدت حضارة مصر القديمة إلى قلب أفريقيا عن طريق بلاد النوبة وحوض النيل وشعت هذه الحضارة جنوبًا فقد امتد شعاعها ناحية الغرب، كما أن مصر كانت لها تجارة بحرية مع دول الشمال، وخاصة سوريا وقبرص وكريت، وبذلك امتدت الحضارة المصرية إلى دول البحر الأبيض المتوسط.

ولا يخلو تاريخ أفريقيا من حقيقة واقعة؛ وهي أن خلال الألف والخمسمائة سنة الأخيرة– أي منذ سيطرة الفينيقيين على شمال أفريقيا في القرن الثامن قبل الميلاد حتى مجئ العرب إلى تلك الأجزاء في القرن السابع الميلادي– جميع سكان شمالي أفريقيا كانوا ينعمون بحضارة واحدة ألا وهي حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط.

وسكان هذه المنطقة ذوي بشرة فاتحة وهم ينتمون للجنس القوقازى، ولذلك لقبهم اليونانيون بالليبيين وقبائل البربر التي تقيم في الجبال الواقعة في شمالي أفريقيا من سلالة الليبيين.

ويعزى انتشار حضارة البحر المتوسط في شمالي أفريقيا إلى توغل الفينيقيين وامتداد نفوذهم. ولما كانوا يفضلون الإبحار نهارًا وعلى مرأى من

الساحل، فقد اضطروا إلى إقامة محطات على مسافات قصيرة على طول الساحل شمالي أفريقيا. وقد أصبحت كارتيج (تونس) أهم هذه المحطات؛ ويرجع ذلك إلى موقعها المتميز الذي مكنها من السيطرة على مدخل الجزء الغربي من البحر المتوسط وذلك لقربها من ساحل جزيرة صقلية. كما سيطرت على سهول تونس التي كانت تعتبر أكبر السهول المزروعة في شمالي أفريقيا بعد مصر. ولما فقدت سوريا استقلالها خلال القرن السادس قبل الميلاد وعندما أصبحت سيرنياكا (ليبيا) مستعمرة يونانية، ظلت كارتيج العاصمة لمجموعة من المدن الممتدة على طول الساحل الشمالي حتى المحيط الأطلسي.

وأخذت قبائل البربر عن الفينيقيين فنون الزراعة. كما تعلموا منهم الحياة المستقرة المنتظمة وأخذت كارتيج في الاتساع وسكانها في الازدياد حتى بلغوا نصف مليون نسمة. وبذلك دخلت سهول تونس في نطاقها وأصبحت دولة تحول رجال قبائلها إلى مزارعين.

وفي نهاية عصر كارتيج بدأ رجال قبائل البربر في جبال (نوميديا) (الجزء الشرقي من الجزائر) في تنظيم أنفسهم في دولة زراعية مستقرة وظهر في ذلك الوقت موسى عليه السلام يدعو إلى اليهودية وتبع ذلك دخول بعض اليهود في مستعمرات الفينيقيين واستجابة بعض القبائل إلى الدعوة اليهودية في جنوبي تونس.

وقامت الحروب بين مستعمرات اليونان والفينيقيين واستطاعت كارتيج أن تبعد اليونانيين عن شمالي أفريقيا. وبذلك لم تدخل الحضارة

اليونانية إلا مصر وسيرنيكا وكانت مصر هي الباب الذي ولجته الحضارة اليونانية إلى أفريقيا، وخاصة بعد أن فتحها الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ثم توفي بعد ذلك بعشر سنوات وتشتتت بموته الإمبراطورية التي أقامها وأصبحت الإسكندرية أعظم المدن في الإمبراطورية اليونانية أثناء حكم (بطليموس). كما أصاب البطالمة ثروة عظيمة عن طريق فرض ضرائب زراعية وتجارية وأهم نتائج هذا الحكم هو اندماج الحضارة اليونانية وثقافتها وفلسفتها وعلومها بالحضارة الشرقية.

وبلغ تعداد مدينة الإسكندرية– التي كانت عاصمة مصر في ذلك الوقت– ثلاثمائة ألف نسمة واتخذت قاعدة للمناظرات الفلسفية والدينية عندما وفد إليها عدد كبير من اليهود وظلت الإسكندرية تقوم بذلك الدور إلى ما بعد ظهور المسيحية وخلال الثلاثة القرون الأولى في العصر المسيحي.

وتمكن الرومان– في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد– من هزيمة دولة كارتيج وإقامة إمبراطورية لهم في شمالي أفريقيا واتخذوا من سهول تونس مستقرًا لهم ولكنهم رأوا– لكي تستتب لهم الأمور وتستقر– أنه لابد من السيطرة على دولة (نيوميديا) (الجزائر حاليا) وبالفعل استولوا عليها ثم استولوا بعد ذلك على الساحل حتى المحيط الأطلسي. وبالرغم من ذلك بقيت مشكلة القبائل التي تسكن جبال الجزائر إذ ظلت تغير على المناطق الزراعية وكان الحل الوحيد هو سيطرة الحكام الرومان على تلك القبائل حتى حدود الصحراء الكبرى. وبذلك دخلت مصر وسيرنابكا (ليبيا) في حكم الرومان في أوائل القرن الأول قبل الميلاد وأصبح للرومان إمبراطورية أفريقية من الشرق إلى الغرب بطول أربعة آلاف ميل زرعوا فيها جميع

الأراضي التي تصلح للزراعة.

ويعاب على هذه الإمبراطورية أنه لم يكن لها وحدة تربط بين أطرافها سوى وحدة المكان. إذ كانت تقع على الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط الذي يسيطر عليه الرومان. ولم يكن تأثير الرومان واضحًا في مصر وضوحه وفاعليته في الولايات الأخرى بل على العكس، فإن الرومانيين أنفسهم أخذوا يتلاءمون مع الطبيعة المصرية وذلك لقوة الشخصية المصرية. ومع ذلك ظل الرومان أجانب عن مصر ولم يستطيعوا الاندماج مع المصريين. وترتب على سوء استغلال الأرض لمصلحتهم– مصلحة الرومان– أن أُجهدت الأراضي الزراعية التي عانى المصريون كثيرًا في إحيائها.

وخلال القرن الرابع والخامس والسادس، ازداد انتشار المسيحية التي أصبحت دين الدولة في الإمبراطورية الرومانية، ثم أخذت حركة المقاومة ضد الرومان تنبت في مصر وتتشعب في ولايات أفريقيا ونوميديا (الجزائر).

وكان الأقباط في مصر يتبعون الكنيسة القبطية معارضين بذلك كنيسة الأرثوذكس. وعلى الرغم من بعثة المكيت التبشيرية في بلاد النوبة، فإن أهالي النوبة لم يقبلوا إلا الخضوع والتبعية للكنيسة القبطية في مصر وكذلك في السودان والحبشة وسوريا.

بدأت سلطة الرومان بالانكماش في أفريقيا وأوروبا خلال القرنين الرابع والخامس. وفي هذه الفترة عرفت دول شمالي أفريقيا الجمل الذي جئ به من آسيا وتيسرت بذلك وسائل العيش والتغلب على ظروف الحياة القاسية في الصحراء الجرداء المجدبة واستعملت الجِمال في الإغارة على

جموع الرومان الذين انتشر بينهم التفكك وساعد عليه إغارة الفاندال من أسبانيا على شمالي أفريقيا في القرن الخامس. واستقبل البربر هؤلاء الفاندال وهم من قبائل الجرمان على أنهم مخلصون من الرومان ولكنهم أشاعوا جوًّا من المحاكمات الدينية والفوضى.

ومما لا شك فيه أن البربر كانوا على اتصال بالزنوج عندما كانت الصحراء أرضًا مزروعة يجري فيها الماء وينتشر فيها الظل في العصور الأولى (٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد) ولما بدأ الجفاف التدريجي بدأ معه نزوح الزنوج صوب الجنوب تاركين الصحاري للبربر الرحل، وقد تخلف بطبيعة الحال بعض من هؤلاء الزنوج في الواحات كما هاجر بعض الشماليين إلى الجنوب حتى لقد كان أول ملوك غانا من هؤلاء البيض، ويرجع قيام نيجيريا وكانم في الشرق وصنغاي (نيجيريا وساحل الذهب وغانا حاليا) في الغرب إلى الهجرة سواء من الشمال أو الجنوب أو من وادي النيل واختلطوا ونتج عن هذا الاختلاط شعب يرتبط منذ القدم برابطة الدم والروح بأجداده الأول من وادي النيل وشمالي أفريقيا وقال (الفرازي) إن غانا تسمى عند المراكشيين بأرض الذهب وعلى ذلك تعتبر حضارة غربي أفريقيا مستمدة من حضارة البربر وليست من حضارة البحر المتوسط التي لم تتعد الجزء الشمالي من أفريقيا.

وعندما دخل شمالي أفريقيا في الإسلام كان البربر يعرفون بالطوارق وقد اعترف المؤرخون العرب بطوارق الغرب وبالبربر المقيمين في قبائل شرقي الجزائر. ويعيش الطوارق اليوم في الجزائر وأصبحت القبائل خارج ذلك المثلث عربًا.

وكانت هناك قبيلة الملثمين؛ وسموا بهذا الاسم لأن كبار رجالها كانوا يضعون النقاب على وجوههم ولا يجوز لبقية القبيلة أن يروا ما تحت أعينهم.

كما كانت تعيش قبائل (زاجاوا) في المنطقة التي تقع جنوب غربي مصر وكانت تسيطر تلك القبائل على شرقي الصحراء الكبرى ويتميزون عن بقية القبائل بقربهم من وادي النيل ولذلك وصلت إليهم حضارة النيل.

هذا وقد أخبرنا (البكري) في القرن الحادي عشر أن سلالة ملوك غانا وكانوا يلقبون (تانكاماينى) ما هم إلا من قبائل الطوارق وأن بقية من حجاب ما زالت باقية كعلامة لنبلاء (هوسا) جنوبي الجزائر وشرقي غانا على خط عرض ١٥° شمالا كما أن ملوك (كانم) وهي تقع بين السودان في الشرق و(هوسا) في الغرب– كانوا يختارون زوجاتهم من النساء النبيلات من الشمال.